

## فلوبير: «معجم الأفكار الجاهزة»

قد يذكرنا تشتت القراءات بطفل يتصفّح قاموساً، بحثاً عن الصور. استلهم الأدب الألعاب الذهنية، هذا إذا لم يكن اللعب مبتدأه أو على الأقل أحد مبادئه الأساسية. ثمة روايات تُقرأ من دون اضطراب إلى التقيد بترتيب الصفحات. جورج بيريك، المهووس بالقواميس والتصنيف وترتيب القوائم، بنى روايته الكبرى «الحياة دليل استعمال» مثلما كان يصمّم شبكات الكلمات المتقاطعة التي تفتن في تركيبها وابتكار تعاريفها. الكلمات المتقاطعة مقلوبُ القاموس، فالشرح بين يديك والكلمة غائبة؛ صناعة كل منهما لا تجيز التقريبية أو الخطأ. ومثلما حاول كورد لاسفيتز، أحد رواد أدب الخيال العلمي، أن يقلص عدد حروف الأبجدية اللاتينية إلى اثنين وعشرين حرفاً والاختفاء بعلماتي ترقيم اثنتين فقط هما الفارزة والنقطة، كتب بيريك كامل عمله «اختفاء» من دون حرف e. العودة إلى القاموس متعة. ليست زيارة للقبور، أو مرجعاً إلى الصواب والفضاحة والدقة. لتذكّر رواية «معجم الخرز» لميلوراد بافيتش. إنها تحتوي ثلاثة قواميس أو موسوعات صغرى خيالية تقابل الديانات الإبراهيمية الثلاث: ممثلون عن الإسلام والمسيحية واليهودية. ويعد وصولهم إلى بحر قرزين، يسعون إلى هداية ملك الخرز وإقناعه كل بمزايا ديانتته، ثم يدّعي كل منهم أنه وحده المنتصر بينما ويلات الحروب تنزل بالخرزيين، ويتبعثرون ككلمات في قاموس كل باب من أبوابه يضمّ بعضاً من شظايا سيرهم.

حلم أدباء كثيرين بمعجم يخصّهم، إذ ما من كتاب مثله يحقّق خفاء المؤلف. أراد فلوبير (1821 - 1880) أن يختفي وراء مؤلفاته؛ قارن العمل الفني بالهزم «ينتصب في الصحراء، باهراً وعديم المنفعة، تتسلقه بنات أوى وتتبول البرجوازية على قاعدته»، وظل عقوداً يتردد على فوضى عمله «معجم الأفكار الجاهزة» (1913) Dictionnaire des idées reçues. إنه أحد مشاريع شبابه، صرح به صديقاً للمرة الأولى في رسالة كتبها من دمشق أثناء إحدى الرحلات، إذ فكر بتأليف كتاب مقلق آخر، بحيث إذا تكلم القارئ، خشي التفوه بواحدة من تلك الأفكار الموسومة في هذا العمل. استوقفته الكليشيهات واستفترته، وخصوصاً في أوساط البرجوازية الباريسية التي ازدهرت مثل ما يفعل معظم الأدباء الفرنسيين عادة، فالأفكار النمطية أو المسبقة مجهولة المؤلف، ملغزة ودائمة الحضور.

اعتبر فلوبير هذا المعجم عمله الأثير، ربّ الأبواب وفهرسها أبجدياً، وراح يللمل المحتويات ويلخصها سنوات طوالاً، استقطر أكواماً من الهراء المكتوب والمنطوق، مفتشاً عن المفارقات والعبارة الجاهزة التي سمع الناس يتداولونها حوله أو يتفوهون بها لظهروا عارفين بمجريات الأمور، متنبّهاً إلى ترهات «الأذكياء» وتطيرات المتعلمين ولانزات أحاديثهم ولغوهم وحذلقاتهم. قد يُستخدم لفظ «الرومانسية» انتقاصاً أو تندرأ، مثلما يُستخدم لفظ «الكليشيه» فرنسي الأصل كتهمة يتقازفها الجميع. لكن هذا الاستخدام ليس استعراضاً أو ترديداً ببغائياً، لأن الأفكار الجاهزة ذات جذور اجتماعية، تمنح إحساساً بالانتماء والارتياح، وربما توحى بالقوة وصحة الرأي. إنها قناعات موجودة قبل أن نبداً التفكير، تُفحم المعارضين وتسكتهم في اللحظة المواتية، وكالتعاويد أوقات القلاقل قد تقي من فداحة الجهل أو المهانة وضراوة اليأس، وكثيراً ما ينتفع بها الصحفيون والسياسيون.

لا يتطابق الإنسان وتصوراته حول نفسه، هذا إذا حظي بتصوير واضح حقاً، ولا يسعى الروائي إلى الحقيقة التي لا يمتلكها أحد، لا ينطق باسم أحد ولا يمثل شيئاً. لا يستثنى فلوبير نفسه حين يهجو البلاهة أو الكليشيه. يقول، مزهواً بعقله العلمي، إن البلاهة توابك التقدم العلمي في التطور لتتخذ أشكالاً ومظاهر عصرية. فاستخدام الكليشيهات إحدى متلازمات الإنسان، ودلالة أخرى على تحولات المجتمع وتاريخه. معجم فلوبير تهكّم باحتياج التفاهات للعالم وحشو الرؤوس بالهذيان، ألحقه بروايته الأخيرة «بوفار وبيكوشيه» التي استغرقته ست سنوات ولم يكملها، بعدما عنونها في البداية «مذكرات صرصورين» أو «موسوعة الحماقة الإنسانية». هذا العمل، بشطريه المتزامنين المتوازيين- الرواية الموسوعية والمعجم، هو خلاصة قراءات فلوبير وملاحظاته، وقد يُضاف إليهما أحياناً ملحق آخر هو «دليل الأفكار الأنيقة». مثل دون كيخوته مجنون القراءة، ينفق بوفار وبيكوشيه وقتاً طويلاً بين مؤلفات معاصريهم والقدامى، ولا يفقهان شيئاً تقريباً مما يقرآن، ثم يعودان، بعد عدد هائل من القصص الفرعية، النساخين اللذين كاناهما. قرأ المؤلف معهما مئات الكتب، وربما صار كل منهما وكليهما كأنه فاوست ذو رأسين يدرك في النهاية عبث القراءة. بهذا الشطط وهذا الإسراف، حطّم فلوبير الرواية الواقعية التي أسسها مع «مدام بوفاري»؛ قال إنه مختلف في الإخفاقات فحسب، أما في النجاحات فلا يتميز بشيء عن القدماء.

### (الالف)

الابسينت. سم زعاف: كأس واحدة منه تصرعك ميتاً. يشربه الصحفيون أثناء كتابة مقالاتهم. قتل جنوداً أكثر مما قتلهم البدو الجزائريون. سيدمر الجيش الفرنسي. الأدب. مهنة الكسالى. - الأرز (اللبناني). شجرة الأرز الضخمة في حديقة النباتات وصلت محمولة في قبة رجل. - الأرستقراطية. محتقرة ومحسودة. - الاستيقاظ المبكر. علامة على حسن الأخلاق؛ إذا أخلدت إلى الفراش في الرابعة صباحاً واستيقظت في الثامنة، فأنت إذن كسول. أما إذا أخلدت إلى الفراش في التاسعة مساءً واستيقظت في الخامسة صباح اليوم التالي، فأنت نشيط. - الأسد. حيوان نبيل. يلعب دائماً مع كرة كبيرة. «زمن، يا أسد!». «تخيّل أن الأسود والنمور مجرد قطط!». - الأسنان. ينخرها السّيدر والتدغ

### ترجمة وإعداد جولان حاجي

والحلوى والمخلّجات وشرب الماء فوراً بعد الحساء والنوم بغم مفتوح. العين الأذن: من الخطير قلع الأسنان لأنها متصلة بالعيون. «قلع السنّ ليس مزحة». - الأعرس. مذهب في نصب الأسبجة. أبرغ من الإيمن. - الإعلان. تُجنى منه ثروات طائلة. - الأكاديمية الفرنسية. انتقدها وشوه سمعتها، ولكن صير عضواً فيها إن استطعت. - الإمبراطورات. كلهنّ جميلات. - أمريكا. مثال شهير عن الظلم؛ اكتشفها كولومبوس وسُميت على اسم أميرغو فيسبوتشي. لولا اكتشاف أمريكا لما عانينا من الزهري والفيلوكسيرا (مرض نباتي يصيب الكروم). لا تتوانى عن مديحتها، وخصوصاً إذا لم تكن قد زرتها أبداً. لقتت الناس درسا في الحكم الذاتي. - أنثى. كلمة لا تطبّق إلا على الحيوانات. خلافاً للإنسان، إنثا الحيوانات أقل جمالاً من ذكورها. استشهد بأمثلة متنوعة: التدرع،

الدب، الأسد. - إيطاليا. زيارتها واجبة على الفور بعد حفل الزفاف. خيبة لا حدود لها، ليست بالجمال الذي يقال عنها. (الباء)

- باريس. العاهرة العظيمة. العاصمة. نظرة الأرياف إليها (والعكس بالعكس). جنة للنساء، جحيم للخيول.

- باغانيني. لم يدورن كمنجته قط. كانت له أصابع مدهشة الطول.

- البذاءة. كل الكلمات العلمية المشتقة من اللاتينية واليونانية تنطوي على شيء من البذاءة.

- البذخ. سبب انهيار الكثير من الإمبراطوريات.

- البرونز. معدن العصور الغابرة.

- البطيخ. موضوع جميل لأحاديث المائدة: هل هو من الفواكه أم من الخضروات؟ محبّر حقاً أن يأكله الإنجليز كنوع من الحلوى.

- البعوض. أخطر من أي حيوان متوحش.

- البلياردو. لعبة فخمة. لا غنى عنها في الريف.

- البنت الراقصة. عبارة تلهب المخيلة. كل النساء في الشرق راقصات.

- البوذية. «ديانة ملفقة من الهند». (هذا تعريفها في قاموس بوييه، الطبعة الأولى).

- البيضنة. منطلق نقاش فلسفي حول أصل الحياة.

- البجع والنساء. غاية الحياة.

### (الحاء)

- الحابل. لا يدرك الناس مدى قوة الحبل. إنه أصلب من الحديد.

- الحدائق. الحدائق الإنكليزية طبيعية أكثر من الفرنسية.

- الحديد. حكم فرنسا يقتضي يداً من حديد.

- الحليب. يذيب المحار، ينوم الأفاعي، يبيض البشرة. بعض النساء في باريس يستحمن بالحليب يومياً.

- الحيوانات. «فقط لو نطقت الحيوانات بالكلام؛ بعضها أذكى من البشر».

### (الخاء)

- الخاتم. أن تلبس خاتماً في سبابتك أمر مميز جداً. وضع خاتم في الإبهام تصرّف شرقي للغاية. لبس الخواتم يشوّه الأصابع.

- الخادمت. كلهنّ عديمات الكفاءة. العثور على الخدم أمر في منتهى الصعوبة هذه الأيام!

- الخبز. لا أحد يعرف أي وسخ يدشون فيه.

### (الدال)

- داروين. الرجل الذي يقول إننا جميعاً منحدرين من القرد.

- دمشق. المكان الوحيد الذي يعرفون فيه كيف تُصنع السيوف. كل النصال الرهيفة آتية من دمشق.

- ديكارت. أنا أفكر إذن أنا موجود.

### (الراء)

- التطرّف. الأخطر في شكله الكامن. الجمهورية تقودنا على الطريق إلى التطرّف.

- التوراة. أقدم كتاب في العالم.

### (الناء)

- ثلاثة عشر. تجنّب أن تكون الثالث عشر على المائدة، فذلك يجلب النحس. ينبغي لأصحاب البديهة الحاضرة أن يعلقوا دائماً بالملاحظة التالية: «لا بأس، سائل ما يكفي لشخصين». أو، إن كانت هناك سيدات حاضرات، اسأل إن كانت أي منهنّ حاملاً.

- الثوم. يقتل الديدان المعوية ويهيج الرغبات الإبروتيكية العنيفة. فركوا به شفتي هنري الرابع عند ولادته.

### (الجيـم)

- الجراخون. قساة القلوب. أشدّ إليهم بصفة الجزائريين.

- الجرائد. يستحيل العيش من دونها، وفي الوقت نفسه هاجمها بصوت مجلجل. أهميتها في المجتمع الحديث. مثال: لوفينغارو. الصحف الجديدة: ريفو دي دو موند، ليكونوميست، لو جورنال دي ديباه. اتركها على الطاولة في غرفة معيشتك، بعد التأكد من تركها مفتوحة الصفحات. ضع إشارات بقلم أحمر على بعض الفقرات، فهذا يوّلد انطباعاً ممتازاً. في الصباح، اقرأ مقالاً في واحدة من هذه الصحف الجديدة الرصينة. ومن ثم، عندما يأتي الضيوف في المساء، وجّه دفة الحديث نحو الموضوع الذي كنت تقرأه صباحاً. هذه هي فرصتك لكي تتألق.

- الجزائريون. مخيفون في أوقات الثورة.

- الرّعاة. كل الرعاة سخرة. اختصاصهم التحدّث مع مريم العذراء.

- الروايات. تفسد الجماهير. إذا ظهرت في الصحافة بشكلها المتسلسل كانت أقل إخلالاً بالأخلاق من صورها مطبوعة في كتب. يجب السماح بالروايات التاريخية فقط لأنها تعلم التاريخ. الفرسان الثلاثة على سبيل المثال. بعض الروايات مكتوبة برأس مشرط (مدام بوفاري، مثلاً)، وبعضها مبني على رأس إبرة.

### (الزايـم)

- الزئبق. يقضي على المرض والمريض. الزرافة. كلمة مهذبة تستخدم عندما ترغب في تحاشي أن تدعو امرأة «بقرة عجوزاً».

- الزنوج. قلّ ملاحظتك بنبرة اندهاش؛ لعابهم أبيض ويستطيعون أن يتكلموا الفرنسية.

- زواج فيغارو (أوبرا موتسارت). سبب من أسباب الثورة الفرنسية.

- زيت الزيتون. رديء دائماً. يجب أن يكون لديك صديق في مرسلينا ليرسل إليك قناني صغيرة من الزيت الأصلي.

### (السين)

- الساعات. الأرقى تصنع في جنيف. كلما أخرج أحد الأشخاص ساعته في المسرحيات الإيمائية، فلا بد من أن تكون بصلية: هذه الدعاية لا تفشل أبداً. «هل ساعتك مضبوطة؟» «تستطيع أن تضبط الشمس عليها». - السكين. كاتالونية إذا كان نصلها طويلاً؛ تسقى خنجراً إذا استخدمت في ارتكاب جريمة.

- السيجار. ما تحتكر الحكومة بيعه دخان فاسد؛ النوعية الوحيدة الجيدة هي السيجار المهزّب.

### (الشيـن)

- الشامة. جيدة لكتابة الشعر.

- الشطرنج. كلعبة في منتهى الجدية، وكعلم من دون أي طائل. تحاكي التكتيكات العسكرية. كل القادة العظام كانوا لاعبي شطرنج بارعين.

After  
Nights  
Study  
لجون  
فريدريك  
بيتو  
(1890 -  
1900 زيت  
على  
كانفاس  
36,2 x  
50,8 سنتم)

